العندليب عبدالحليم حافظ: ٤٠ عاما من الخلود

جلست والحزن بعينيها
تتأمل فنجاني المقلوب
قالت يا ولدي لا تحزن
فالحب عليك هو المكتوب
يا ولدي قد مات شهيدا
من مات فداء للمحبوب

من «قارئة الفنجان» لنزار قباني

صباح قاهري حزين

كان صباح القاهرة حزينا ومكتئبا على غير عادته، صبيحة الخميس ٣١ مارس من عام ١٩٧٧م. إنه أحد الصباحات التي تصحو فيها القاهرة وقد تعرفت على غياب عندليبها الأسمر عبدالحليم حافظ، الذي اختطفه الموت قبل ليلة في مستشفى كنجز كولدج بلندن، بعد أن يئس الأطباء من علاجه، واستسلمت روحه إلى بارئها بتاريخ ٣٠ مارس ١٩٧٧م.

عبدالحليم حافظ الذي سكن القلوب وأصبح الضمير النابض للشعب المصري بشكل خاص، والفن العربي بشكل عام، ها هو يترجل عن جواده ويرحل إلى مثواه الأخير تاركا صوته المغروس عميقا في وجدان شعبه، بعد حياة صاخبة مليئة بالفن والحب والأسرار والمثابرة والمرض ومكابدات الألم، وهو الذي أجرى في حياته أكثر من ٦٠ عملية جراحية، ورقد في العديد من مستشفيات العالم.

يصل الجثمان النحيل إلى القاهرة فجر الخميس ٣١ مارس، وكان من المقرر نقله إلى مستشفى المعادي، ومن ثم إلى جامع عمر مكرم، إلا أن وزير الأوقاف، وكان حينها الشيخ محمد متولي الشعراوي، قد أمر بفتح جامع عمر مكرم ليستقبل الجثمان الذي سيظل مسجى فيه حتى الصباح، موعد تشييعه إلى مرقده الأخير.

في حدود الساعة الحادية عشرة صباحا كانت القاهرة تستعد لاستقبال إحدى أكبر الجنازات المهيبة في تاريخها الحديث، وهي ثالث أكبر جنازة بعد جنازة الزعيم جمال عبدالناصر وأم كلثوم. التلفزيون المصري يعلن مسار مرور الجنازة، لتغلق بعدها الطرقات في قلب القاهرة من جامع عمر مكرم مرورا بميدان التحرير، وصولا إلى جامع شركس، لتنطلق من ساحته إلى منطقة البساتين، ليوارى الجثمان في مقبرة خاصة، على أرض كان قد ابتاعها حليم في حياته قبل ١٧ عاما، ولم يقم ببنائها طيلة تلك الفترة، حتى قرر ذلك قبل ٤٥ يوما من وفاته، ولكنها كانت مقرا لرقدته الأبدية.

كانت الجنازة تشق طريقها على مرأى من القاهرة، التي كانت تلبس السواد، فيما كان كل شبر من الأرض والأرصفة والأشجار والهواء والطرقات والجدران تنبض بصوت عبدالحليم الذي يسري عميقا دافئا في حنايا الأرض كالماء والظلال ورائحة الخبز. وبينما كانت الجنازة المهيبة تودع القاهرة، كانت الدموع تجري من المآقي والقلوب تتقطع حزنا والأصوات تتعالى بالنحيب والبنايات تحفها الوحشة ويكسوها الوجوم. ولعل أصدق ما يجسد ذلك مشاهد الانتحارات التي شهدتها الجنازة هو ما كتبته إحدى الفتيات التي قضت انتحارا إذ قالت: «سامحني يا رب على ما فعلت بنفسي، لم أقو على تحمل هذه الصدمة بوفاة أعز وأغلى ما في الحياة عبد الحليم حافظ، فقد كان النور الذي أضاء حياتي، واليوم الخميس كرهت الحياة منذ اللحظة التي قرأت في الصحف خبر وفاته».

ابن القدر

عبدالحليم حافظ ابن قروي من قرية «الحلوات» في محافظة الشرقية بمصر، أو هو كما يسمي نفسه «ابن القدر». عاش حياة الفقر واليتم إذ توفيت والدته بعد ولادته بأيام، ومات والده قبل أن يتم عامه الأول، ليعيش طفولته يتيما يكفله خاله الحاج متولي عماشة. وكعادة أبناء الريف المصري كان عبدالحليم حافظ يلعب مع الصبية من أقاربه وأبناء عمه في الترعة التي تجري فيها مياه ملوثة، فانتقل إليه منها مرض البلهارسيا الذي أودى بحياته وهو ابن السابعة والأربعين.

هذا الآتي من القاع، يحمل في صدره مرارة اليتم وضيق العيش والحرمان، لم تمنعه قسوة الظروف والأقدار من أن يشق طريقه نحو المجد والإبداع ليصبح أحد أبرز الذي مروا

على ذاكرة الموسيقى والغناء العربي. لقد استطاع أن يحول كل ذلك الفقد والحزن إلى طاقة إبداعية فجرها بكل ما أوتي من قدرة خلال سنين عمره القصير نسبيا.

كان هدفه واضحا، وهو أن يكرس حياته من أجل مشروعه الفني والإبداعي. ومن ذلك أجل يوظف كل شيء ويطوعه لصالح هذا المشروع الذي كان يعني بالنسبة له معادلا وجوديا للحياة، حتى إنه، وهو الذي يدعى عبدالحليم شبانة، لم يحتفظ من اسمه سوى بعبدالحليم، واستبدل والده «شبانة» باسم أكثر قبولا وله جرس فني مختلف وهو «حافظ»، تيمنا بالإعلامي حافظ عبد الوهاب الذي اكتشف موهبة عبدالحليم وسمح له باستخدام اسمه، ليصبح بعد ذلك عبدالحليم حافظ، وهو اسم فني بامتياز نابع من وعي عبدالحليم الذي كان يعلم بحسه الفني ووعيه المرهف أن للاسم أهمية خاصة في الوسط الفني، لا تقل أهمية عن الموهبة ذاتها.

سعى عبدالحليم، وفقا لتكوينه ذاك، أن ينزل بالأغنية من أبراجها العاجية العالية، بعد أن بلغت ذروتها في الكلاسيكية والتطويل والمقدمات الموسيقية التي تشبه المعلقات العصماء في ذاكرة الشعر العربي، فأنزلها إلى حياة الناس البسطاء، وجعلها في متناول الجميع، معبرة عن حال الناس، بسيطة، قصيرة، ممتعة، تماما مثلما فعل نزار قباني مع القصيدة العربية، حين قطع على نفسه أن يحيلها خبزا يوميا للناس البسطاء.

دخولا في أزمة الحداثة

كان عبدالحليم يحمل مشروعًا فنيا مغايرا أو ربما ثائرا على ما كان سائدا قبله، وكان يحلم بأن يحمل الأغنية المصرية ويمضي بها إلى ضفاف جديدة، ليقدم أغنية أقل تعقيدا واستعراضا، وأكثر قابلية وتجاوبًا مع روح العصر، بل والمستقبل، سواء على مستوى حجم الأغنية وطولها، أو على مستوى الكلمة التي أخذت تتجه للحداثة، وعلى مستوى الألحان، التي أخذت تجترح فضاءات مختلفة، وتنفتح في كثير من الأحيان على الموسيقى الإنسانية في أوسع حدودها، كما في أغنية (توبة) و(رسالة من تحت الماء) (وقارئة الفنجان) اللتين قدم فيهما مفهوما جديدا للأغنية الفصحى، مفهوم يتجاوز حدود عصره ليدخل إلى أزمة الحداثة والحساسية الشعرية الجديدة.

ومن المعلوم أن عبدالحليم قد صدم الذائقة

السائدة التي اعتادت على القديم وجعلته معيارا للفن والغناء، خلافا لرؤية عبدالحليم الذي كان يرى الإبداع تجديدا وتجاوزا للقديم البالي، مدفوعا بشغف المغامرة وتقديم المغاير لما هو سائد ومكرس.

لقد صدم حليم الذائقة العامة حينما قدم أغنيته (صافيني مرة) من كلمات سمير محجوب، وألحان محمد الموجي عام ١٩٥٢م، فرفضتها الجماهير للوهلة الأولى، ولكنه ظل مؤمنا بمشروعه متمسكا برؤيته في التجديد، فقدمها مجددا في السنة التالية، أي عام ١٩٥٣م، فحظيت بنجاح لافت. وهكذا خطا عبدالحليم خطوته الأولى والأساس لترويض الذائقة وتلطيفها لتتعود على الجديد وتتقبله وتحبه. لذلك يأتي من جديد بعد عام واحد ليقدم أغنية (على قد الشوق) من كلمات محمد علي أحمد، وألحان كمال الطويل.

وتوالت بعد ذلك النجاحات التي صنعت من عبدالحليم رمزا فنيا بامتياز، عبر مسيرة فنية أغنى فيها مكتبة الموسيقى العربية بأعمال

خالدة مثل (موعود) و(سواح) و(أهواك) و(فاتت جنبنا) و(يا خلي القلب) و(قل لي حاجة) و(نبتدي منين الحكاية) و(حاول تفتكرني) وغيرها من الأعمال الخالدة، في تعاونات متعددة على مستوى الألحان والأشعار، مثل الموسيقار محمد عبدالوهاب ومحمد الموجي وكمال الطويل وبليغ حمدي. أما على مستوى الشعر فقد ترنم حليم بكلمات العديد من الشعراء مثل نزار قباني وصلاح عبدالصبور وعبدالرحمن الأبنودي وخالد بن سعود، وصلاح جاهين وغيرهم.

وقد بلغت الأغاني الموثقة لعبدالحليم حافظ أكثر من مائتين وثلاثين أغنية قام بجمعها وتوثيقها صديقه مجدي العمروسي، الذي وضعها بين دفتي كتاب أطلق عليه (كراسة الحب والوطنية: السجل الكامل لكل ما غناه العندليب الأسمر عبد الحليم حافظ).

الثورة والحرية والسينما

وقد عايش عبدالحليم حافظ مرحلة مهمة في التاريخ العربي الحديث، كانت المنطقة العربية تمر فيها بتحولات كبيرة وتخوض معارك مصيرية طاحنة من أجل الوجود والبقاء والحرية. ومن الأحداث التي عاشها في حياته قيام الثوة المصرية، وتولي الزعيم المصري القومي جمال عبد الناصر زمام السلطة في مصر، والحرب مع إسرائيل والنكسة التي لحقت بالعرب إثر ذلك، بالإضافة إلى النضالات العربية من أجل التحرر من قبضة الاستعمار الغربي، الذي كان يجثم على كل شبر من الأرض العربية.

وقد واكب عبدالحليم هذا الحراك النضالي والسياسي العربي بأعمال وطنية وقومية مهمة مثل (العهد الجديد) التي قدمها عبدالحليم عام ١٩٥٢م، بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو، وهي من كلمات محمود عبد الحي وألحان عبد الحميد توفيق زكي، وتعد أول نشيد وطني قدمه عبد الحليم حافظ. وبعد انتخاب جمال عبد الناصر رئيسًا للجمهورية عام ١٩٥٦م، قدم بهذه المناسبة أغنية (إحنا الشعب) من كلمات صلاح جاهين وألحان كمال الطويل . وعلى إثر العدوان الثلاثي على مصر قدم (الله يا بلدنا) عام ١٩٥٦م، وهي أول عمل وطني يجمعه بالموسيقار محمد عبد

الوهاب. وللقدس غنى أيضا (على أرضها) من كلمات عبد الرحمن الأبنودي وألحان بليغ حمدي .كما تغنى بكفاح الشعب الجزائري الذي نال استقلاله من المستعمر الفرنسي، حيث قدم عام ١٩٦٢م أغنية بعنوان (الجزائر). هذا إلى جانب العشرات من الأعمال الوطنية التي رافقت تحولات المشهد على الصعيدين المصري والعربي، مثل (مطالب شعب) و(صورة) و(عدى النهار) و(أحلف بسماها) و(البندقية اتكلمت) وغيرها الكثير.

ولعبدالحليم إسهام بارز في المجال السينمائي والدرامي، إذ قدم خلال مسيرته ستة عشر فيلما سينمائيا باتت الآن من أبرز رومانسيات السينما العربية. ففي عام ١٩٥٥ قدم أربعة أفلام، حتى وصف ذلك العام بأنه العام الذهبي سينمائياً لعبدالحليم. وكانت انطلاقته السينمائية مع فيلم (لحن الوفاء)، يليه)أيامنا الحلوة) ثم (ليالي الحب) و(أيام وليالي) و(موعد غرام) و(دليلة) و(بنات اليوم) و(الوسادة الخالية) و(فتى أحلامي) و(شارع الحب) و(حكاية حب) و(البنات والصيف) و(يوم من عمريو(الخطايا) و(معبودة الجماهير) (أبي فوق الشجرة). كما قام عبد الحليم بدور البطولة في المسلسل الإذاعي (أرجوك لا تفهمني بسرعة).

وقد أثبت عبدالحليم خلال هذه الأعمال موهبته الواضحة في مجال التمثيل، ما أهله إلى الوقوف مع أبرز نجوم الشاشة المصرية آنذاك أمثل محمد الموجي وسعاد حسني ونجلاء فتحي وصباح وفؤاد المهندس ويوسف شعبان وعبد السلام النابلسي وسهير البابلي وغيرهم الكثير.

ويرحل عبدالحليم بجسده، في حين تظل أعماله الموسيقية والسينمائية وكذلك ابتهالاته الدينية والروحية خالدة رغم مرور أربعين عاما على الرحيل الفاجع. كما تظل أيضا الأسرار التي نسجت حول الكثير من تفاصيل حياتة الخاصة، لاسيما معشوقته ذات العيون الجميلة، وزواجه بسعاد حسني وعلاقته بالسياسة وغيرها من الأشياء التي تزداد بريقا مع مرور الزمن.

تضفي الألوان الأكثر
إشراقا على الحياة

MAZOON
PRINTING, PUBLISHING & ADVERTISING L.L.C.
مزون
للطباعة والنشر والإعلان (ش.م.م)
ص.ب ١٧٨، الرمز البريدي ١١٤ مطرح ، سلطنة عُمان
تليفون : ٢٤٨١٧٠٠٤ (٩٦٨) فاكس : ٢٤٨١٦٨٨٨ (٩٦٨)
www.mazoonprinting.com